عنوان المحاضرة الرابعة: علاقة الخطاب التاريخي بالخطاب الروائي

الأستاذة: خالص زهرة

الرواية سرد قصصي قوامه الخيال الذي يعتبره الكثير من الدارسين نتاج موروث إنساني ذو طابع تاريخي عميق، لأن الرواية العربية تحاول التنكر للواقع التاريخي، فهي تبرز الجانب الانتقادي التخييلي الذي يعمل على استحضار الخطاب التاريخي لمواجهة الواقع المعاش وانتقاده. فالحديث التاريخي من هنا، يواجه الواقع الذي مضى بواقع الحاضر، مغذيا تطور حديثيته انطلاقا من إعادة تكوين الواقع بمادة رمزية. لأجل ذلك فإن التاريخ يخضع للرواية وتقنياتها الجديدة التي تسترجع كل ما يناسب الحاضر، وتستغله لأجل أن يخدم أغراضها الإيديولوجية والفنية. ولهذا يغدو التاريخ مادة طينية، تأخذ كل الأشكال التي يمنحها تخيل الكاتب إياها. والتاريخي من هنا لا يقوم إلا بالخضوع للكتابة التخييلية مما يفتح مواجهة بين الواقعي والتخييلي بالرواية والأمر إذن يتعلق بمهنية الروائي، حيث تتواجه المعرفة الروائية التاريخية والمعرفة الروائية.

فبتداخل الرواية والخطاب التاريخي يتولد سرد تخييلي، حامل لمعنى جديد يتمتع بدفقة إبداعية جريئة تتسع حدودها لتشمل الزمن الماضي الذي يمتد في الحاضر ويتواصل إلى المستقبل.

إذا كان الخطاب الأدبي يتسم بالتشويق ويحدث المتعة في النفس، فإن الخطاب التاريخي يسعى إلى تقديم حصيلة من النتائج المترتبة عن وقائع معينة وأحداث محددة جرت في زمن مضى. فخطاب التاريخ يرتبط أساسا بالماضي الذي يشده إليه ويبعده عن الغلو بخياله إلى استشراف آفاق المستقبل والتنبؤ بخباياه ومفاجآته، وهو الشيء الذي يهدف إليه خطاب الأدب قبل كل شيء.

فالتاريخ يتمثل في البحث والتنقيب، وهو علم قائم بذاته له قواعده وأصوله وأدواته، يتجلى برؤية صادقة أمينة للأحداث التي يسردها كما جرت على أرض الواقع والحقيقة. إلى جانب هذا التاريخ

أو من عمقه، ينهض نوع آخر منه مغيّب ومسكوت عنه في كل كتب التاريخ التي تعنى بالحوادث وما شاكلها من الدّروس والعبر التي يمكن استخلاصها منها فالتاريخ هو الزمان، والزمان ليس منفصلا عن الإنسان، الإنسان بمفرده تاريخ. في جوهره له بداية ونهاية. ثم إن خطاب التاريخ يتسم بالتقريرية المباشرة الجافة، وهو وإن حاول أن يكتب قصة أو حكاية، أو رواية، فإنه يهدف أساسا إلى تقديم النتائج المترتبة عنها والمبلورة مباشرة في ذهنه دون إعطاء أي اعتبار لعنصر التشويق والمتعة في الموضوع. ونستنتج من ذلك أن خطاب التاريخ يوجب الصّدق والكذب.

لم يلتزم كلا من الروائي والمؤرخ بحدوده، فالمؤرخ يرى أن الروائي لم يكتف بخياله، ويرى الروائي أن المؤرخ لم يحترم تاريخه وتجاوزه إلى غيره، وهو ما يسمى "بالإغراء المتبادل"، أي ثمة إغراء تاريخي في الرواية وإغراء أدبي في التاريخ. فالروائي يتعامل مع التاريخ، والمؤرخ روائي بمعنى ما، بدليل أننا نجد الكثير من المؤرخين العرب الذين اتصف عملهم بمنهجية ما وكانوا مع ذلك أدباء في أسلوبهم وفي كتاباتهم، (مثل المسعودي، وابن خلدون، وابن جُبير، ...) فالعلاقة الجدلية بين التاريخ والأدب واردة رغم ما يكتنفها من غموض في بعض الأحيان، غير أن التاريخ كإغراء بالنسبة للروائي يظل قائما بصورة كبيرة وقوية، وأنّ التجاذب بين الطرفين يكمن في عنصر (التفاعلية) التي تشد أحدهما إلى الآخر.

نستنتج من ذلك أنّ العلاقة بين المؤرخ والروائي، ثابتة فالروائي مؤرخا محتشما والمؤرخ أديبا محتشما، إذ من طبيعة التاريخ البحث عن الموضوعية في المقام الأول، وتجعل الموضوعية في مقام ثانوي.

وبما أن التاريخ علم قائم بذاته له قواعده وأصوله، فهو لم يعد ذلك السرد المبسط للأحداث، بل أصبح مجموعة من العلوم والمعارف النفسية والاجتماعية وغيرها تهدف إلى اكتشاف الحقيقة الثابتة وهذا لا يمنع الروائي أن يغير بعض الحقائق التاريخية أو يعدّل فيها، بدليل أن "وليام فولكنر" وهو كاتب وروائي تحدث في رواياته عن جنوب الولايات المتحدة الأمريكية، وحرب الانشقاق التي وقعت فيما بين الشمال والجنوب بكل أبعادها المختلفة. فكان إذا تحدث عن الجنوب ربطه بقضية الزنوج، وبتلك الخادمة الزنجية المترهلة، وهي أبدا إما ممرضة أو خادمة ليس غير حتى قيل إن جنوب الولايات المتحدة له. وهذا يؤكد أن الروائي قد يأتي بأشياء يجهلها حتى المؤرخ نفسه، كما أعلن عن ذلك "بلزاك". وفي هذا الصدد في

مقدمة بعض أعماله أكد أنه يريد كتابة تاريخ التقاليد والعادات وغيرها مما أهمله المؤرخون. فالروائي يستدعي الماضي أو التاريخ الذي يقوم على أساس الفن ويقصد به توظيف رموز التاريخ والماضي وإسقاطهما على ما هو حادث وقائم في الحاضر، وهي وسيلة تهدف إلى توصيل فكرة ما بطريقة تعبيرية فنية. وبذلك يتجنب الروائي الأسلوب التقريري المباشر الذي يحوّل به التاريخ إلى رواية أو فن روائي بالاستعانة بأدوات ووسائل فنية قصد التشويق وخلق المتعة كي يوصل المعنى المقصود، أو كل ما يريد إيصاله إلى أكبر عدد ممكن من القراء، فالتاريخ على أساس هو رمز من الماضي السائد في الحاضر.

والروائي يتخذ من حاضره سلاحا، فهو يزخر بمعارف وعلوم تبحث من يوظُفها ويجسّدها على أرض الواقع. وبعض الروايات الحديثة إن لم نقل إنّ معظمها تحاول أن تؤرّخ لحاضرها عبر زمنين اثنين:

– **الزمن الأول**: زمن الماضي التاريخي الذي تستعيد رموزه المختلفة وتمزجها بالحاضر الراهن من خلال قضية ما.

– **الزمن الثاني**: زمن الحاضر المعيش، حيث تؤرخ للحياة اليومية ولعلاقات الناس فيما بينهم وهي بذلك تعكس وجهة نظر الروائي في القضية التي يعالجها. وهو سيتحضر التاريخ لهدفين:

1. إما لمحاولة تقديم هذا التاريخ، أو التعريف به على سبيل الإعجاب به.

2. وإما للإستعانة بالأبعاد الرمزية التي يتوفر عليها التاريخ العربي الإسلامي. والروائي له إمكانية توظيف التاريخ بطريقة مفتوحة وبحرية وتوغل. فهو يختار ثغرة تاريخية ومنها يفتح آفاقا جديدة للمؤرخ تجعله تلك الثغرة يتفطن إلى أمور كثيرة كان يجهلها. وقد وظف الروائي التاريخ بطريقة مفتوحة وقد تصرف في بعض أحداثه كما حلا له، وهو حين يكتب الرواية يستعمل أحداثا تاريخية مضبوطة ويضيف إليها بعض المكونات الذاتية التي تعطي شيئا اسمه متعة النص.

المراجع:

-سعيد علوش، الرواية والتاريخ، ط1، دار الكلة للنشر، بيروت لبنان، 1981م.

-سعيد يقطين، الرواية والتراث السردي، المركز الثقافي العربي دار البيضاء، المغرب،1992م.

-سعيد سلام، التناص التراثي -الرواية الجزائرية أنموذجا -عالم الكتب الحديث، الأردن، 2010م.